مجلة البحوث والدراسات الإسلامية، عدد خاص بواقع المؤتمر العلمي الدولي بعنوان "التكامل الفكري في مواجهة التحديات العلمية" (٢٠٢٦/٢/١)، ص ص: ٦١ – ٨٨

قوائم المحتويات متاحة على المجلات الاكاديمية العراقية

مجلة البحوث والدراسات الاسلامية

الصفحة الرئيسية للمجلة: https://djisrs.dws.gov.iq

تمثلات "دار الإسلام" و"دار الكفر" في شعر الفتوحات الإسلامية قراءة موضوعية في حدود الانتماء العقدي والجغرافي

Representations of 'Dar al-Islam' and 'Dar al-Kufr' in the Poetry of Islamic Conquests: An Objective Reading of the Boundaries of Doctrinal and Geographical Belonging

م .م فتحي طه ضاري/جامعة سامراء-كلية الآداب-قسم الآثار*

Abstract

Kufr are represented in early -Islam and Dar al-This study investigates how the notions of Dar al Arabic poetry of the Islamic era. It focuses on the poets' contribution to shaping collective entity, and examines the degree to which juristic perceptions of territorial and doctrinal id interpretations of these terms align with their poetic representations. The research adopts a analytical and historical approach, examining selected poetic texts from the period of -descriptive light of their thematic content rather than their artistic form. Through contextual and conquests in interpretive analysis, the study traces how these terms evolved semantically and conceptually that early poets often The analysis reveals .within the broader framework of belonging and faith Islam, particularly after the Prophet's -linked their sense of geographical belonging to Dar al migration to Medina. Their verses reflected loyalty to monotheism and opposition to polytheism, raying the House of Islam as a moral and symbolic space regardless of territorial boundaries, port that defined identity and unity. The research concludes that this phase of poetic production represents an important stage in the evolution of Islamic ideological discourse and its linguistic .onexpressi

Keywords

epresentation
-Dar al-
Dar -Islam
-Kufr -al
Islamic
-conquests
Doctrinal
and
geographical
belonging

* Corresponding author at**Instructor. Asst. Fathi Taha Dhari**

College of Arts- university of Samaraa

معلومات المقال

تاريخ المقال:

الكلمات المفتاحية:

تمثلات – دار الإسلام – دار الكفر – الفتوحات الإسلامية – الانتماء العقدي والجغرافي.

ملخص

تستهدف البحث تحليل تمثلات مفهومي "دار الإسلام" و"دار الكفر" في الشعر العربي في صدر الإسلام، وإبراز دور الشعراء في تشكيل الوعي الجمعي بالمفاهيم الجغرافية والعقدية، واستكشاف مدى تطابق المفهوم الفقهي لهذين المصطلحين مع حضورهما في الشعر، وتتبع أثر المتغيرات السياسية والمكانية في بناء المعاني المتعلقة بالانتماء. وبغية الوصول إلى تلك الأهداف اعتمدت البحث على المنهج الموضوعي التحليلي، حيث يتم تحليل النصوص الشعرية المنتقاة من شعر الفتوحات في صدر الإسلام من زاوية الموضوع لا من زاوية البناء الفني، وذلك بالاستناد إلى أدوات التحليل الموضوعي والقراءة السياقية. وقد تمثلت مشكلة في أن انعكاس مفاهيم "دار الإسلام" و"دار الكفر" في الشعر العربي في صدر الإسلام ظلّ مجالًا لم يُتناول بعمق من زاوية موضوعية تُبرز حدود الانتماء والهوية في ضوء هذين المصطلحين، فهل استطاع الشعر أن يعكس وعيًا دقيقًا بهذه الحدود؟ وهل كان الانتماء الجغرافي خاضعًا تمامًا للمحدد العقدي، أم كانت هناك مرونة شعرية؟ وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج؛ لعل أبرزها: أن الشعراء قد عبَّروا عن الانتماء الجغرافي لدار الإسلام بداية من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ومدحه، والإشادة بما جاء به من الحق، ونبذ الشرك وأهله مهما كانت البقعة الجغرافية التي يقيمون فيها؛ ولذا كانت دار الإسلام هي رمزية النجاة والأمان للشعراء. كما اتخذ بعض التوصيات؛ منها: إعداد مزيد من الدراسات الموجهة إلى شعر الفتوح لكونه يمثل مرحلة مهمة في شعر صدر الإسلام، كما يمثل الرد على تراجع الشعر ودوره في تلك الحقبة.

١ – المقدمة:

شهد عصر صدر الإسلام حدثًا مصيريًا ترك بصمته في التكوين الثقافي والذهني للمجتمع العربي، وهو حدث الفتوحات الإسلامية، الذي لم يكن مجرد توسع جغرافي أو انتصار عسكري، بل كان أيضًا تحوّلًا عميقًا في الوعي الجمعي، وفي بنية الانتماء العقدي والجغرافي، وقد انعكس هذا التحول في نصوص الشعراء الذين واكبوا تلك المرحلة؛ حيث مثّلوا عبر أشعارهم مفاهيم "دار الإسلام" و"دار الكفر" بوصفها مفاصل حيوية تعيد تعريف الذات والآخر، وتهيكل العلاقة بين العقيدة والمكان، وبين الولاء والانتماء. ويأتي هذا البحث ليدرس كيف تمثل الشعراء هذين المفهومين في ضوء وعيهم الديني والسياسي والجغرافي، مستنطقًا شعر الفتوحات لا من حيث بنيته الفنية، وإنما من حيث مضامينه العقدية والموضوعية، ساعيًا إلى الكشف عن التحولات في مفهوم "الدار" عند الشعراء، والحدود التي رسمها الوعي العقدي، وكيف تفاعلت تلك التصورات مع الامتداد الجغرافي الجديد الذي أحدثته الفتوحات الإسلامية.

١.١.مشكلة البحث:

برغم ما تمثّله مفاهيم "دار الإسلام" و"دار الكفر" من أهمية مركزية في الفكر الإسلامي، لكن انعكاسها في الشعر العربي في صدر الإسلام ظلّ مجالًا لم يُتناول بعمق من زاوية موضوعية تُبرز حدود الانتماء والهوية في ضوء هذين المصطلحين، فهل استطاع الشعر أن يعكس وعيًا دقيقًا بهذه الحدود؟ وهل كان الانتماء الجغرافي خاضعًا تمامًا للمحدد العقدي، أم كانت هناك مرونة شعرية؟

٢.١.أسئلة البحث:

- كيف مثّلت قصائد الفتوحات مفهوم "دار الإسلام" ومفهوم "دار الكفر" من حيث الانتماء العقدي والجغرافي؟
- هل التزم الشعراء بالتصور الفقهي البحت لهذين المفهومين أم تجاوزوه إلى رؤى ذاتية أو سياسية؟
- ما أثر السياق السياسي والجغرافي في تشكيل الوعي الشعري بمفهوم "الدار" في زمن الفتوحات؟

٣.١.أهداف البحث:

- تحليل تمثلات مفهومي "دار الإسلام" و"دار الكفر" في الشعر العربي في صدر الإسلام.
- إبراز دور الشعراء في تشكيل الوعي الجمعي بالمفاهيم الجغرافية والعقدية.
- استكشاف مدى تطابق المفهوم الفقهي لهذين المصطلحين مع حضورهما في الشعر.

- تتبع أثر المتغيرات السياسية والمكانية في بناء المعاني المتعلقة بالانتماء.

٤.١.أهمية البحث:

يتناول البحث منطقة مهملة من الدراسات الأدبية؛ إذ يركّز على التقاطع بين الانتماء العقدي والانتماء الجغرافي كما يصوره الشعر، بعيدًا عن المعالجات الفنية المعتادة؛ ما يجعله ذا طابع موضوعي نقدي يثري حقل الأدب الإسلامي، ويقدّم صورة أوضح عن دور الشعر في تشكيل وعي الأمة الناشئة إزاء المكان والهوية والآخر.

٥١.منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج الموضوعي التحليلي، حيث يتم تحليل النصوص الشعرية المنتقاة من شعر الفتوحات في صدر الإسلام من زاوية الموضوع لا من زاوية البناء الفني، وذلك بالاستناد إلى أدوات التحليل الموضوعي والقراءة السياقية.

٦.١.فرضيات البحث:

- من المتوقع أن يكون الانتماء العقدي هو المحدد الأول في تمثيل مفهومي "دار الإسلام" و"دار الكفر" في شعر الفتوحات.
- يُحتمل أن نجد تجاوزات أو مرونة في تطبيق هذه الحدود، خاصة في ظل التوسع الجغرافي وتعدد الشعوب والبلدان.
- من المرجح أن يظهر في الشعر وعي مزدوج يجمع بين الولاء العقدي والحنين إلى المكان أو البيئة.

٧.١.خطة البحث:

مقدمة.

المبحث الأول: المفهوم العقدي والجغرافي لـ "دار الإسلام" و"دار الكفر" في الفكر الإسلامي المبكر

المطلب الأول: الجذور الشرعية لمفاهيم الدار والانتماء.

يتناول تطور مفهومي "دار الإسلام" و"دار الكفر" في المصادر الأولى: القرآن، والسنة، والفقه الإسلامي.

المطلب الثاني: الامتداد الجغرافي والدلالي لمفهوم الدار في الفتوحات

يعالج كيف تعاملت الدولة الإسلامية مع المفاهيم الجغرافية في ظل الفتوحات، ومدى تحول مدلول "الدار" تبعًا لذلك.

المطلب الثالث: أثر هذه المفاهيم في التكوين الذهني للجماعة المسلمة

يناقش كيف أصبح مفهوم "الدار" أحد محددات الهوية والانتماء في وعي المجتمع المسلم.

المبحث الثاني: تمثلات "دار الإسلام" في شعر الفتوحات الإسلامية

المطلب الأول: "دار الإسلام" بوصفها رمزًا للنجاة والحق

يحلل صور تمجيد الدار وتمثيلها في الشعر رمزًا دينيًّا ووجوديًّا جامعًا.

المطلب الثاني: توظيف جغرافي لمفهوم الدار في تعيين الانتماء

يناقش كيف استخدم الشعراء الجغرافيا لتحديد ملامح دار الإسلام، وتمييزها عن "الدار الأخرى".

المطلب الثالث: "دار الإسلام" والانتماء للذات الجمعية

يتناول كيفية تمثيل الانتماء الجماعي الإسلامي عبر هذا المفهوم، وأثره في التعبئة الدينية.

المبحث الثالث: تمثلات "دار الكفر" في شعر الفتوحات الإسلامية

المطلب الأول: "دار الكفر" بوصفها فضاء للمواجهة العقدية

تحليل لصور العدوّ والعقيدة في جغرافيا "الدار الأخرى".

المطلب الثاني: تقاطع الرؤية الجغرافية مع التصور العقدي

دراسة حدود الدمج أو الفصل بين الجغرافيا والعقيدة في تمثيل "دار الكفر".

المطلب الثالث: شعر الفتوحات والتصعيد العقدي في مواجهة الدار الأخرى

تتبع التوظيف الدعوي والقتالي لمفهوم "دار الكفر" في التعبير الشعري.

الخاتمة:

أولًا: النتائج.

ثانيًا: التوصيات.

٢.المبحث الأول: المفهوم العقدي والجغرافي لـ "دار الإسلام" و"دار الكفر" في الفكر الإسلامي المبكر

١.٢.المطلب الأول: الجذور الشرعية لمفاهيم الدار والانتماء.

تعريف الدار لغة: المفهوم اللغوي للدار هو احتوائه لأشخاص معينين ففي اللسان أنها اسم جامع لمحل النزول والاستقرار[]. ويقول الراغب الأصبهاني: تُعرَّف الدّار في اللغة بأنها المنزل المحاط بالحائط، واشتُقّ اسمها من الدَّوران والإحاطة. ويُقال لها أيضًا دارة، وجمعها ديار. ثم توسّع العرب في استعمالها فسمّوا البلدة دارًا، وأطلقوا الاسم كذلك على الصُّقع أو الإقليم[]. أما (دار الإسلام)، و(دار الكفر) فهو مصطلح تركيبي عُرف في الشريعة الإسلامية، للتفريق بين محلين ينتميان لمفهوم عقدي مغاير.

تعريف دار الإسلام، ودار الكفر اصطلاحًا: إن المتأمل في هذا المصطلح يجد تعدد تعاريفه

عند فقهاء الإسلام بحسب مذاهبهم، ولكن يمكننا الجمع بين هذه الآراء بتعريف شامل يتناسق والبحث. يرى فقهاء الشافعية أن دار الإسلام هي كل أرضٍ تخضع لسلطة الإمام أو الحاكم المسلم، ولو لم يكن بين سكانها مسلم واحد(). ويعرفها الحنابلة بقولهم: تُعَدّ دار الإسلام كلَّ أرضٍ استقرّ فيها المسلمون، وتُطبَّق فيها أحكام الشريعة الإسلامية، أمّا الأرض التي لا تُنفَّذ فيها تلك الأحكام فلا تُصنَّف ضمن ديار الإسلام(). والتعريفان متقاربان، ومفادهما أن كل بلد نزل به المسلمون، وطبقوا فيه تعاليم دينهم، أو وكان تحت حكمهم وينفَّذ فيه تعاليم الإسلام؛ فهو دار الإسلام، وإن لم يكن أغلب سكانه مسلمين، والعكس في دار الكفر، فلو أن بلدًا أغلبها مسلمين، ولكن لا يطبق فيها أحكام الإسلام، أو أنهم أقليَّة ولا يطبقون تعاليم الدين؛ فهي دار الكفر. وقد أطلق العلماء ثلاثة مصطلحات للدور باعتبار ذلك: دار الإسلام، ودار الكفر، ودار الحرب، ولكل دار منها أحكام خاصة في الشريعة. يرى المحدثون أن دار الإسلام هي الإقليم الذي تُطبَّق فيه الشريعة الإسلامية وتُنفَّذ أحكامها، ويعيش فيه الناس في ظلّ أمان المسلمين؛ سواء أكانوا من أتباع الإسلام أم من أهل الذمة، أمّا دار الحرب فهي المنطقة التي لا تسود فيها أحكام الإسلام، ولا يتمتّع ساكنوها بحماية الدولة الإسلامية وأمانها().

والناظر إلى هذه التعريفات يجد أنها قامت على اعتبارين: الأول: القوة والغلبة لمن في الدار، والثاني نوع الأحكام التي تطبق فيها. وقد جاء لفظ (_الدار) في القرآن الكريم في مواضع عدة، وأبرز هذه المواضع ما يشير إلى دار الإسلام في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [الحشر: ٩]، إشارة إلى الأنصار والدار هي المدينة/ يثرب، فإنها كان يطبق فيها تعاليم الإسلام ولم يكن أغلب سكانها مسلمين، وكان المسلم آمنًا فيها على نفسه. وأما في السنة، فقد جاء في الحديث: " ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين"().

مفهوم الانتماء:

الانتماء لغة: الانتساب، "انتمى إليه: انتسب... ويُقال في الاستعمال العربي: إنّ فلانًا انتسب إلى فلانٍ إذا عاد نسبه إليه، أو ارتبط به من جهة الأصل(). يُعرَّف الانتماء في الاصطلاح بأنه ارتباط صادق وحقيقي بقضية أو مبدأ محدّد من حيث الفكر، يتجلّى أثره في السلوك والعمل(). "والانتماء صورة من صور الولاء، والإخلاص، والارتباط، والحب، والاندماج، والشعور بالهوية، فهو عبارة عن إحساس تجاه أمر معين، أو جهة معينة يبعث على الولاء

لها، والفخر بالانتساب إليها"(). وينقسم إلى قسمين: انتماء ديني، وهو انتماء قلبي وجداني صادق، يدل على الشعور والعاطفة لمجموعة معينة، ويمثل ذلك قوله –صلى الله عليه وسلم–: "المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ"(). وانتماء سياسي، وهو ما يقابل الجنسية أو المواطنة في المفهوم المعاصر.

٢.٢.المطلب الثاني: الامتداد الجغرافي والدلالي لمفهوم الدار في الفتوحات:

لم يُعرف للإسلام دولة إلا بعد الهجرة؛ إذ أصبحت منذ ذاك هي الدولة الإسلامية الناشئة التي تحمي العقيدة الدينية، وللمدينة حدود جغرافية، "فهي تقع على الحافة الغربية المنحدرة من الجزء السهلي للجزيرة العربية، والمسافة بينها وبين ينبع على الساحل (٢٧٥) كيلو، وبينها وبين مكة جنوبًا (٥٠٠) كيلو، والجزء الجنوبي من المدينة أكثر ارتفاعًا ويعرف بالعالية، والشمالي بالسافلة، وقباء أهم قرى العالية، وفي شمالها جبل أحد، وفي جنوبها جبل عِير وسلع، كما يحيط بها في جهتي الشرق والغرب تكوينات بركانية، عُرفت باسم لا بتي المدينة أو حرتيها"().

وكانت لهذه الحدود الجغرافية أهمية في عقد التحالفات بين النبي –صلى الله عليه وسلم– وبين القبائل المجاورة له، وكان التوزيع السكاني للمدينة يشمل قبائل اليهود، وقبيلتي الأوس والخزرج، والمهاجرين من إخوانهم المسلمين من سائر العرب، وقد وضع النبي – صلى الله عليه وسلم– دستورًا للدولة الجديدة حين آخى بين المهاجرين والأنصار أوسًا وخزرجًا نصَّ على أُخوتهم الدينية والعقدية، وأنهم أمة واحدة من دون الناس، ثم عقد معاهدة بينهم وبين اليهود الذين يشاركون المسلمين دارهم، وهذا المفهوم من تعريف دار الإسلام السابق يوضح لنا قيام الدولة الإسلامية بحدودها الجغرافية الجديدة، والمفهوم الدلالي للانتماء للدولة. وتحديد الدار (الدولة) هنا جغرافيًّا له أهمية سياسية وانتمائية، لأن الموقع يؤثر على القيمة الحقيقية للدولة، وانتماء أفرادها وتلاحمهم، ويؤثر في مصالحها ودورها الذي يُمارس، وتمثل هذه الدار (البقعة الجغرافية) مجموعة من الأهداف التي يؤمن بها سكانها، هذه الأهداف هي التي تغذي مفهوم الانتماء، وتساعد على الوحدة والتماسك الداخلي، وقيام الدولة يتوقف على مدى إدراك ووعي وإخلاص المقيمين بها والهدف الذي من أجله قامت(). أما المفهوم السياسي، فقد تشكل مع أول خطاب ديني موجه للآخر الوثني، ومن خلال مفهوم نشر الدين الحق بمفهوم التوحيد ونبذ الشرك، ونبذ الفساد الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي، والدعوة إلى القيم المثلى والأخلاق الكريمة؛ حدثت

المواجهات بين المسلمين والكفار ممن حول المدينة، فبدأ الصدام العسكري بين المسلمين (نحن)، و(الآخر) كل من لم يدن بدين الحق، حتى انتهى الصراع بدخول الجزيرة العربية كلها في دين الله، وخروج جند الله منها إلى أنحاء العالم. وحياة العرب في الجزيرة العربية تتشابه لتشابه المكان، فالمكان هنا عامل تأثير مهم في الشخصية، فالبقعة الجغرافية المتشابهة أثرت في المقيمين بها فتشابهت طبائعهم وأبعادهم النفسية العاكسة لما يثيره المكان في نفوسهم إيجابًا أو سلبًا، ولمَّا تغلغل الإيمان في قلوبهم وشعروا بالأمن النفسي والاجتماعي في ظلاله؛ انعكس ذلك على سلوكهم الخارجي، فمثلوا المعاني العقدية والمفاهيم الدينية في أشعارهم، العاكسة للمفاهيم الجغرافية لدار الإسلام، فمن الشعر المعبِّر عن الهوية الإسلامية، والمعاني الدينية، والانتماء الجغرافي لدار الإسلام التي يقيم بها الرسول والمؤمنون معه، قول حسان بن ثابت -رضي الله عنه- [الطويل]:

مِنَ الرُّسْلِ وَالأَوْثَانُ فِي الأَرْضِ تُعْبَدُ نَبِي أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَفَتْرَةٍ

يَلُوحُ كَمَا لَاحَ الصَّقِيلِ المهنَّدُ فَأَمْسَى سِرَاجًا مُسْتَنِيرًا وَهَادِيًا

وَعَلَّمَنَا الْإِسْلَامَ فَاللهَ نَحْمَدُ[0] وَأَنْذَرَنَا نَارًا وَبَشَّرَ جَنَّةً

فالمكان هنا انعكاس لحقيقة الشخصيات، فالأرض كانت مليئة بعبادة الأوثان والأصنام، ولكن لما حلَّ النبي صلى الله عليه وسلم المدينة انعكست شخصيته عليها فتحولت إلى نور الإيمان الذي أضاء من شخصيته صلى الله عليه وسلم، كما انعكست على الشخصيات من حوله بما بشرهم به من الجنة وأنذرهم من النار، وبما علمهم من قيم الإسلام، ولذا وجب الحمد على كل مسلم مقيم في هذه الدار.

ومنه قول النابغة الجعدي [الطويل]:

وَيَتْلُو كِتَابًا كَالمَجَرَّةِ نَيِّرَا أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى

وإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا[0] بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدَنَا وَجُدودنَا

المطلب الثالث: أثر هذه المفاهيم في التكوين الذهني للجماعة المسلمة:

لقد شاع عند النقاد أن الشاعر ابن بيئته، وهو ما يعني أن الإنسان يتأثر بالبيئة التي يعيش فيها وتنطبع مظاهرها في نتاجه الإبداعي، وكثيرًا ما نجد فلسفة الوجود وأسئلة الذات في الشعر انعكاس للبيئة التي عايشها الشاعر، فالبيئة تتخطى الحدود الجغرافية والتلاصق المكاني إلى التأثير المتبادل، وتشكيل الثقافة، والمعايير الأخلاقية، والقيم الإنسانية، ومن هنا فإن الشاعر يعيش مع المكان كجزء من تكوينه، وليس مجرد أحيزة طبيعية أو عمرانية تعزله عن العالم الخارجي، وإنما هو عامل متبادل التأثير بينه وبين المقيم فيه، حتى يؤثِّر في أعماقه، ومن هنا كانت الطبيعة أهم مصادر الإعانة للشاعر على الاستفادة من التجارب الإنسانية المتعددة. ولمَّا كانت البيئة

العربية في الجزيرة العربية متشابهة المعالم؛ وجدنا العرب يتفقون على بعض القيم والأخلاقيات فيما بينهم قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام لم تكن العادات الأخلاقية التي جاءت لارتقاء النفس البشرية بغريبة عليهم إلا مَن نازعته نفسه للشر واتباع الدنية. ولذا نجد تأثير البيئة في التكوين الذهني للجماعة المسلمة يكاد يكون متشابهًا، ويتمثل ذلك في عدة أمور مشتركة، أهمها:

-البعد الديني العقدي.

المتأمل في الفتوحات الإسلامية جميعها في عصر صدر الإسلام يجد الدافع الديني والانتماء العقدي هو المحرض الأول على بذل النفس في سبيل الله، فالمسلمون تتلى عليهم آيات الجهاد، وفيها تحريض على قتال المشركين، وإخبار بمكانة الشهداء عند ربهم، ومكانة المجاهد عند ربه، مما دفع المسلمين صغارًا وكبارًا إلى بذل نفوسهم في الله وطلبهم للشهادة، فبها الضمان إلى جنة الفردوس، والحياة الأبدية، ويسجل الشعر هذه الملاحم والصور النادرة للشجاعة والإقدام، فحين يخرج جيش المسلمين إلى الشام بقيادة سعيد بن عامر يقول [الطويل]:

عَلَى كُلِّ عَجْعَاجٍ مِنَ الْخَيْلِ يَصْبُرُ ... نَسِيرُ بِجَيْشٍ مِنْ رِجَالٍ أَعِزَّةٍ

لِنَنْصُرَهُ وَاللهُ لِلدِّينِ يَنْصُرُ ... إِلَى نَبِيِّ جَرَّاحٍ وَصَحْبِ نَبِيِّنَا

تَرَاهُ عَلَى الصُّلْبَانِ بِاللهِ يَكْفُرُ[0] ... عَلَى كُلِّ كَفَّارٍ لَعِينٍ مُعَانِدِ

ونرى هذه المعاني الإيمانية والقيم الروحية، واستمداد النصر من الله على الأعداء، وشكره على الهداية للإسلام، والإنعام على المسلمين بخير الأنبياء، والنجاة من ظلمات الشكر والأوثان، في قول خالد بن الوليد في فتح دمشق، وهو يقول [الطويل]:

وَشُكْرًا لِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ سَابِغِ النِّعَمِ ... لَكَ الْحَمْدُ مَوْلَانَا عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ

وَأَنْقَذْتَنَا مِنْ حِندسِ الظُّلْمِ وَالظُّلَمِ ... مَنَنْتَ عَلَيْنَا بَعْدَ كُفْرٍ وَظُلْمَةٍ

وَكَشَفْتَ عَنَّا مَا نُلَاقِي مِنَ الغَمِّ ... وَأَكْرَمْتَنَا بِالْهَاشِمِيِّ مُحَمَّدٍ

وَعَجِّلْ لِأَهْلِ الشِّرْكِ بِالْبُؤْسِ وَالنِّقَمِ[0] ... فَتَمِّمْ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا قَدْ تَرُومُهُ

-البعد اللغوي.

وهو انعكاس أيضًا للبيئة، فلقد حافظ العرب على لغتهم نقية من الدخيل إلا في القليل النادر، وحتَّمت البيئة الصحراوية المنعزلة على العرب أن يحافظوا على لغتهم من الاختلاط بلغة غيرهم من الشعوب المجاورة، واحتفظوا بها نقية، حتى جاء الإسلام بكتاب من عند الله خلَّد هذه اللغة، وخرج العرب جميعًا لقتال الأمم وهم متحدون بعقيدتهم، ولغتهم التي يعتزون ويفخرون بها، وقد حركت الهوية والأحداث مشاعر الكثير منهم فأنطقتهم بالشعر الذي هو نبض القلوب، وإفرازات الحكمة العقلية، والانطباعات النفسية، والبيئية، وانشقاقات الأنا وتصاعديتها، عبر آليات الترميز والتقنيع، والبعث وإعادة البناء برؤية متجددة، تتماهى مع النمذجة

المكانية، وتتعالق معها، مع التخييل الذي يميز الشعر عن غيره، ورسائله المشفرة التي يحملها. ولقد عبَّر الشعراء عن انتمائهم العقدي، وولائهم الوطني للمكان في أبيات كثيرة في شعر الفتوح يصعب علينا حصرها، بل جلُّ ما قالوه يندرج تحت هذا البعد اللغوي، ولذا نتجاوز هذا البعد لما بعده.

-الشوق والحنين لموطن الأصل:

فعلى الرغم من أن بعض القبائل خرج منها الكثير من المجاهدين، فتجد الأخ وأخاه وأبه، وأبناء عمومته معه، ونساء القبيلة خرجن يجاهدن في سبيل الله، ويشددن من أزر رجالهم؛ إلا أن الشوق والحنين للدار التي عاش فيها الإنسان، والبيئة المكانية التي تحمل ذكرياته، وأحلامه، مازالت محفورة في قلبه وأعماقه، ويمثل الحنين ارتباط الفرد بثقافته، وتراثه، فهي عادة عربية أيضًا حُملت معهم بأنساقها إلى أرض الجهاد والحرب، فإذا رأى الشاعر المسلم شيئًا في الأرض الجديدة المفتوحة عليهم يُذكِّره بما في بيئته الأصلية؛ حنَّ إلى موطنه، واشتاق إليه وذرف الدموع على فقده، وعزاه ما يحمله من وعي وإدراك بمهمته المنوطة به من إخراج الناس عبادة العبيد إلى عبادة الله الواحد الأحد. فهذا أحد المجاهدين يجد حرارة الجو وشدة القيظ في (أَذْرِعاتُ) وهي مدينة على أطراف الشام()، فيحن إلى هواء نجد ونسيمها العليل، فيقول [الطويل]:

بِعَيْنَيْكَ رِيًّا مَا حَبِيتَ وَنَا نَجْدَا	أَتَبْكِي عَلَى نَجْدٍ وَرَيًّا وَلَنْ تَرَى
رِيَاحُ الصِّبَا تَغْدُو دَكَادِكَ أَوْ وَهْدَا	وَنَا وَاجِدًا رِيحَ الخُزَامَى تَسُوقُهَا
وَيَجْثُو دُجَى الظَّلْمَاءِ ذِكْرَتَنِي نَجْدَا	أَنَا أَيُّهَا الْبَرْقُ الَّذِي بَاتَ يَرْتَقِي
بِنَجْدٍ عَلَى ذِي حَاجَةٍ، طَرَبًا بَعْدَا	وَهَيَّجْتَنِي مِنْ أَذْرِعَاتٍ وَمَا أَرَى
بِنَجْدٍ وَتَزْدَادُ الرِّيَاحُ بِهِ بَرْدَا؟()	أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّيْلَ يَقْصُرُ طُولُهُ

فالبعد والاغتراب يستلزم الشوق والحنين لموطن الأصل، واستدعاء الأماكن من الذاكرة، محمِّلًا إياها ما يحويه الخيال من المعاني الادكارية المغلفة بهالة الحب، وطاقة الشعور، كل ذلك في نتاج جمالي تصوغه اللغة المعبرة، واللسان الشاعري البليغ. وليت الأمر فردي ولكنه شوق جمعي يشترك فيه العرب جميعًا في حنينهم لوطنهم، وشوقهم لمرتع صباهم، بل يتخطاهم ليكون شعورًا إنسانيًّا في المقام الأول، يختلف من شخص لآخر حسب رهافة الحسِّ وقوة الشعور، وسعة التخيل. فأحد الجنود الفاتحين يقول شوقًا وحنينًا لنجد، وأن طرفه ينظر إليها بالرغم عنه [الطويل]:

بِرَغْمِي وَإِنْ لَمْ يُدْرِكِ الطَّرْفُ أَنْظُرُ	أَكَرُّ طَرْفِي نَحْوَ نَجْدٍ وَإِنَّنِي
إِذَا أَمْطَرَتْ عُودٌ وَمِسْكٌ وَعَنْبَرُ	حَنِينًا إِلَى أَرْضٍ كَأَنَّ تُرَابَهَا
وَنُورَ الْأَقَاحِي وَشْيُهُ بُرْدٍ مُحَبَّرُ	بِلَادٌ كَأَنَّ الْأُقْحُوَانَ بِرَوْضِهِ
خِيَامٌ بِنَجْدٍ دُونَهَا الطَّرْفُ يَقْصُرُ	أَحِنُّ إِلَى أَرْضِ الْحِجَازِ وَحَاجَتِي
أَجَلْ لَا، وَلَكِنِّي إِلَى ذَاكَ أَنْظُرُ	وَمَا نَظَرِي فِي نَحْوِ نَجْدٍ بِنَافِعٍ
لِعَيْنِكَ مَجْرَى مَائِهَا يَتَحَدَّرُ	أَفِي كُلِّ يَوْمٍ نَظْرَةً ثُمَّ عَبْرَةً
بِحَرْبٍ وَإِمَّا نَازِحٌ يَتَذَكَّرُ()	مَتَى يَسْتَرِيحُ الْقَلْبُ إِمَّا مُجَاوِزٍ

ومن سمات الشوق المشتهرة: أن يرى المغترب في أرض الحرب ما يذكره ببيئته ووطنه، فجزيرة العرب مشهورة بالنخل، وكم تغنى الشعراء بالنخلة ووصفوها في شعرهم! فإذا كانوا بديار الحرب ورأى أحدهم نخلة؛ ذكرته بموطنه الأصلي فهاج شوقًا إليه. ففي معركة القادسية في (يوم عماس) وهو أحد أيام الحروب الشديدة بين المسلمين والفرس، وكان المسلمون قد حازوا حصن (العذيب) ولم يكن به يومئذ إلا نخلة واحدة، فكانوا يقربون الجرحى منها، فقال رجل من طيئ [الطويل]:

فأجابه رجل من بني تيم الله [الطويل]:

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا نَخْلَةَ بَيْنَ قَادِسٍ
وَبَيْنَ الْعَذِيبِ، لَا يُجَاوِرُكِ النَّخْلُ
أَيَا نَخْلَةَ الْجِرْعَا، وَيَا نَخْلَةَ الْعِدَا
سَقَتْكِ الْغَوَادِي وَالْغُيُوثُ الْهَوَاطِلُ

ونقل إليها الأعور بن قطبة بعد أن أثخنته الجراح، فقال [الطويل]:

أَيَا نَخْلَةً بَيْنَ الْعَذِيبِ فَتَلْعَةَ
سَقَتْكِ الْغَوَادِي الدَّاجِنَاتُ مِنَ النَّخْلِ()

فالنخلة معلم من معالم المكان الأصل، والدعاء لها يعبر عن الشوق والحنين للموطن، والحب العميق له، والتأثر برؤيتها تأثر إيجابي جمعي وليس فرديًّا، يدل على الموروث التاريخي والثقافي للذاكرة الجماعية، واجتماع الأبعاد السابقة الذي يمثل مجموعة القيم المشتركة، والأفكار الموحدة، مع تضخم البعد العقدي عن غيره، وشعور الذات الفردية بما تحمله من قيم دينية ومهام إنسانية تبليغية؛ له أثر بالغ في التكوين الذهني للجماعة الإسلامية.

٣.المبحث الثاني تمثلات "دار الإسلام" في شعر الفتوحات الإسلامية

١.٣.المطلب الأول: "دار الإسلام" بوصفها رمزًا للنجاة والحق.

تمثل دار الإسلام الشعور بالأمن والسكينة، والبعد العقدي الذي تأصل في الشخصية، والطمأنينة أو السلام الداخلي، واستدعاء الذكريات مع شخصية النبي العظيم صلى الله عليه وسلم، وتتجلى هذه المعاني حين أرسل عمرو بن العاص سالم بن بجيعة الكندي بكتاب إلى الخليفة في المدينة يطلب منه الإذن

بفتح صعيد مصر، فخرج سالم وهو ينشد في طريقه [الوافر]:

أَسِيرُ إِلَى الْمَدِينةِ فِي أَمَانِ
وَأَرْجُو الْفَوْزَ فِي غُرفِ الْجِنانِ
وَأَرْجُو أَنْ يُقَرِّبَ لِي اجْتِمَاعِي
وَأُعْطَى مَا أُرِيدُ مِنَ الْأَمَانِي
أَلَا يَا نَاقَتِي جِدِّي وَسِيرِي
إِلَى نَحْوِ النَّبِيِّ بِلَا امْتِهَانِ
وَأَقْرِيهِ السَّلَامَ وَأَنْشِدِيهِ
كَلَامًا صَادِقًا حَسَنَ البَيَانِ
أَلَا يَا أَشْرَفَ الثَّقَلَيْنِ يَا مَنْ
بِهِ شَرُفَ الْمَدِينة وَالْمَكَانِ
فَكُنْ لِي فِي الْمَعَادِ غَدًا شَفِيعًا
إِذَا مَا قِيلَ هَذَا الْعَبْدُ عَانِي()

فالشاعر يصف (المدينة) وهي دار مقدسة، دار الإسلام الأول ويصف الطريق إليها بالأمان، مما يوحي بتوسع دار الإسلام الجغرافي والعقدي أيضًا، والمكان هنا مكان مقدس يشير إليه الشاعر بأنه رمز الفوز والنجاة في الآخرة، والمكان مقرون بإسقاط الذات، فالشعور بالسعادة والفرح للرجوع إلى المدينة، لكونها مصدر تحقيق الأماني الأخروية، وحثّه لناقته ليجتمع هناك بالنبي صلى الله عليه وسلم هو تعبير سافر عن دلالة المقترن بالمكان، والشوق إلى لقاء النبي صلى الله عليه وسلم وإقرائه السلام تعبير عن البعد العقدي والديني الحقيقي الصادق، والشوق للقاء، ثم طلب الشفاعة منه لأنها سبيل النجاة والانعتاق من النار، وكل هذه المعاني الإيمانية تمثلها دار الإسلام التي يقطنها خير الرسل صلى الله عليه وسلم، فهي رمز للنجاة من النار، ورمز إقامة الحق والعدل بين الأمم. وكانت المدينة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم هي دار الحق ومصدر إعداد الجيوش وتوجيهها لفتح البلدان، وكان الخلفاء يوجهون كتبهم إلى العرب في الجزيرة فيأتون طائعين إلى المدينة ملبين رغبة الخليفة، متفاخرين بقوتهم العددية والعقدية التي تعينهم على الفتوحات، فالشاعر ذو الكلاع الحميري، أتى المدينة مع قومه ليتوجهوا لفتح الشام، استجابة لكتاب الخليفة إلى أهل اليمن للتوجه لفتح الشام، فيقول [البسيط]:

أَتَتْكَ حِمْيَرُ بِالْأَهْلِينَ وَالْوَلَدِ
أَهْلُ السَّوَابِقِ وَالعَالُونَ بِالرَّتَبِ
أُسْدٌ غَطَارِفَةٌ شُوسٌ عَمَالِقَةٌ
يَرِدُوا الْكِمَاءَ غَدًا فِي الْحَرْبِ بِالْقُضُبِ
الْحَرْبُ عَادَتُنَا وَالضَّرْبُ هِمَّتُنَا
وَذُو الكُلاعِ دَعَا فِي الْأَهْلِ وَالنَّسَبِ
دِمَشْقُ لِي دَوَّتْ كُلُّ النَّاسِ أَجْمَعُهُم
وَسَاكِنِيهَا سَأَهْوِيهِمْ إِلَى الْعَطَبِ()

فالفخر بقومه وقوتهم المعدة للفتح يعطينا دلالة سيميائية لدار الإسلام التي هي دار الحق ومن أجلها اجتمعت الجيوش للدفاع عنها والخروج منها لتبليغ دعوة الحق، كما أن ذكر (دمشق) التي يتوجه إليها وهو مكان خارجي يعطي النص بعدًا حقيقيًّا لما تقوم به الشخصيات المحاربة، ويعلن عن توجهه وقصده في علاقة تباين بين المكان المعسكر فيه/المدينة بوصفها دار النجاة والحق، والمكان المتوجه إليه/ دمشق، بوصفه مكان الحرب والقتال مما يجعل النص في مواجهة وتحرك بين المكانين. ومثله قول قيس بن هبيرة المرادي [الوافر]:

أَتَتْكَ كَتَائِبٌ مِنَّا سِرَاعَا
ذَوُو التِّيجَانِ أَعْنِي مِنْ مُرَادِ
فَقَدَّمْنَا أَمَامَكَ كَيْ تَرَانَا
نُبِيدُ الْقَوْمَ بِالسَّيْفِ النَّجَادِي()

والبيتان ينطقان بالصدق والشجاعة، والفدائية، مع الاعتزاز بالأصل والشرف التليد، فهم الملوك في الجاهلية ويناسبهم أن يكونوا مقدمين في معالي الأمور، وليس هناك أشرف من الجهاد في سبيل الله، والمكان هنا مذكور ضمنا (أتتك) في الخطاب الموجه للخليفة، وهو بالمدينة، ويقابله المكان الآخر (نبيد القوم)، رمز للمكان الذي تقع فيه الحرب، وهو مكان خارجي لم يذكره الشاعر وإنما ذكر لازمه وهم القوم القاطنين فيه.

٢.٣.المطلب الثاني: توظيف جغرافي لمفهوم الدار في تعيين الانتماء:

يتمظهر المكان بدواله اللغوية عبر الإشارات إلى دار الإسلام بمفهومها الجغرافي، فلم يقف الشعراء أمام وصف الدار كثيرًا بقدر ما أشادوا بالتحول العقدي والنجاة في الآخرة بهجرتهم إلى دار الإسلام، والمكان باعث للطمأنينة في نفوسهم، ودافع لهم للخروج إلى الجهاد ضد أعدائهم، فالمكان يحمل نوعًا من الصراع بين المسلم وغيره، فالشاعر نافع بن الأسود بن قطبة، يوظف دار الهجرة ليعبر عن انتمائه العقدي، ويفخر بما شرف به هو وقومه بالهجرة إلى دار الإسلام، فيقول [الطويل]:

إِلَى هِجْرَةٍ كَانَتْ سَنَاءً وَرِفْعَةً
لِبَاقِيهِمْ فِيهِمْ وَخَيْرُ مرَاغِمِ
فَجَاءَتْ بِهِمْ فِي الْكَتَائِبِ نَصْرَةً
فَكَانُوا حُمَاةَ النَّاسِ عِنْدَ الْعَظَائِمِ
فُصُفُّوا لِأَهْلِ الشِّرْكِ ثُمَّ تَكَبْكَبُوا
وَطَارُوا عَلَيْهِمْ بِالسُّيُوفِ الصَّوَارِمِ
لَدَى غَدْوَةٍ حَتَّى تَوَلَّوا تَسُوقُهُمْ
سُيُوفُ تَمِيمٍ كَاللُّيُوثِ الضَّرَاغِمِ()

فالإشارة إلى المكان هي علامة على مكان حقيقي وليس متخيلًا، يمثل مرجعية عقدية للشاعر وقومه، وهو "الصورة التي تتشكل في ذهن المروي له عن المكان الموصوف، وفي المستوى النصي والدال الجغرافي هو الواقع

المشار إليه حقيقة"()، فالمتلقي يعرف ما تمثله دار الهجرة وما تعنيه. ودار الهجرة (المدينة) مكان مقدس، تتبع أهميته من ساكنه وهو النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا الترابط الحاصل بين النبيصلى الله عليه وسلم والمكان؛ هو ما أعطاه القداسة، وجعل الشعراء يتغنون بهذه البقعة الجغرافية التي تمثل دار الإسلام، ودار الحق، والتوحيد، فحسان بن ثابت يفخر على الناس جميعًا، بأن النبي صلى الله عليه وسلمهاجر من مكة التي أخرجته واستوطن يثرب التي صارت مدينته، فيقول [الطويل]:

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زَالَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ
وَقُدِّسَ مَنْ يَسْرِي إِلَيْهِمْ وَيَغْتَدِي
تَرَحَّلَ عن قَوْمٍ فَضَلَّتْ عُقُولُهُمْ
وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدَّدٍ
هَدَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ رَبُّهُمْ
وَأَرْشَدَهُمْ مَنْ يَتْبَعِ الْحَقَّ يَرْشَدِ
وَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبَ
رِكَابُ هُدًى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعَدِ()

فذكره للمكان (يثرب)، واستخدامه لضمير الجمع المعبر عن الأنصار، يدل على معالم دار الإسلام ومفهومها الواعي لدى الشاعر، إذ بعد ذلك ستصبح يثرب هي المدينة التي يقصدها كل المسلمين. وتظل المدينة هي معقل دار الإسلام والخلافة، ومستنجد الضعفاء من المسلمين الذين أحاط بهم أعداؤهم. على أن مفهوم الدار بحيزه الجغرافي قد تغير بعد ذلك في عصر الفتوحات، فكل بلد يفتحه المسلمون يصير دار إسلام بحيزه الجغرافي، فانتقل المسلمون إلى البلاد المفتوحة، ولا شك أن الأرض التي ينتقلون إليها تمثل ساحة الصراع بينهم وبين أعدائهم، ففرضت بديمومتها الحضورية نفسها على الشعر، فقلما تجد شاعرًا إلا وذكر مكان الحرب التي خاضوها؛ لأنه يجسد الواقع الذي أمامه، وينتقل من ذلك لذكر حسن بلائه وبلاء المسلمين في القتال، وما أوقعوه بعدوهم من الهزيمة والفرار. فالقعقاع بن عمرو يذكر في شعره عدة أماكن انتصر فيها المسلمون على الروم، وقد نزل المسلمون في (الوَاقُوصَةُ)، وهو واد بالشام في أرض حوران لمحاربة الروم في اليرموك، فقال [الوافر]:

أَلَمْ تَرَنَا عَلَى الْيَرْمُوكِ فُزْنَا
كَمَا فُزْنَا بِأَيَّامِ الْعِرَاقِ؟
قَتَلْنَا الرُّومَ حَتَّى مَا تُسَاوِي
عَلَى الْيَرْمُوكِ مَفْرُوقَ الْوَرَاقِ
فَضَضْنَا جَمْعَهُمْ لَمَّا اسْتَحَالُوا
عَلَى الوَاقُوصَةِ الْبُتْرِ الرِّقَاقِ
غَدَاةَ تَهَافَتُوا فِيهَا فَصَارُوا
إِلَى أَمْرٍ تَعَضَّلَ بِالذَّوَاقِ()

فالشاعر يذكر أماكن جغرافية (اليرموك- العراق- الواقوصة)، وهي أماكن ترمز لما كانت عليه قبل الفتح وبعده، فقد صارت بعد الفتح دار إسلام، ولم يستطع الأعداء استردادها، وصار الانتماء إليها يمثل ما بذله المسلمون من جهد وبلاء لفتحها، وتبليغ أهلها رسالة الإسلام. والمكان محور الأحداث التي تذكر في الشعر، ويمثل هوية الشاعر والمسلمين، ويختلف الزمن في ذكر الأماكن من لاحق ومتزامن للأحداث. ومن الأماكن المفتوحة (أجنادين)، إذ توجَّه المسلمون إليها بقيادة أبي عبيد، فقاتلوا الروم قتالًا شديدًا، وقتلوا منهم ثمانون ألفًا، وفتحوها، وفرَّ قائدهم الأرطبون، فقال زياد بن حنظلة ذاكرًا المكان، ومصورًا للأحداث [الطويل]:

وَنَحْنُ تَرَكْنَا أَرْطَبُونَ مُطَرّدًا

إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَفِيهِ حُسُورُ

عَشِيّةَ أَجْنَادِينَ لَمَّا تَتَابَعُوا

وَقَامَتْ عَلَيْهِمْ بِالْعَرَاءِ نُسُورُ()

فالشاعر يذكر (المسجد الأقصى- أجنادين)، أماكن ارتبطت بالأحداث، وهي أماكن مفتوحة ضمت مجموعة متنوعة من البشر، وكانت الأماكن مسرحًا للأحداث، والحديث بخطاب الجمع يعبر عن الذات الجمعية للمسلمين، مما يؤكد الوعي الديني والإدراك المفاهيمي لدى الشعراء، وإن كان التغني بما حققه الشاعر بذاته مع الجيش المسلم؛ لأن الشاعر ينقل ما تراه عينه، والبيت الأخير يؤكد أن هذه المعركة فاصلة، ففطمت الروم عن الشام. وهكذا تغير مفهوم الحيز الجغرافي لدار الإسلام، وصارت كل بلد تفتح سلمًا أو عنوة؛ هي دار إسلام تقام فيها شرائعه، والأماكن المذكورة مقترنة بالمعارك لأنها تمثل الصراع الذي حدث فيها، ووظف الشعراء تلك الأماكن في باب الفخر بالنصر، والانتماء للدين، ووحدة الجماعة المسلمة.

٣.٣.المطلب الثالث: "دار الإسلام" والانتماء للذات الجمعية:

لقد وجد الشعراء في الفتوحات الإسلامية ميدانًا رحبًا لإطلاق ألسنتهم، فالمعارك التي يخوضها المسلمون ضد أعدائهم تشبه البيئة الجاهلية التي كان فيها الكر والفر بين القبائل، غير أن القيم والأهداف المثلى صارت أوضح، والسلطة القبلية المحدودة صارت سلطة للدولة، وقد حوَّل الإسلام تغني الشعراء بقبائلهم إلى التغني بانتصارات المسلمين كجماعة تدين بمذهب عقدي واحد، ولا يعني هذا أنهم ما كانوا يمتازون في الحروب فيقاتل أحيانًا الفوارس تحت رايات قبائلهم التي تجمعها راية التوحيد، وهنا يبدأ التغني بمفاخر الفارس العربي، ومفاخر قبيلته، وما بذلوه من نفوسهم، وتصوير شجاعتهم في المعارك. وهو ما دفع

فارسًا ثقفيًّا (أبو محجن الثقفي) ألا يصبر على ما نزل بقومه من كثرة القتل في معركة القادسية وهو محبوس، وطلب من زوجة سعد بن أبي وقاص أن تطلقه ليحارب على أن يعود إلى محبسه مرة أخرى، فخرج فقاتل قتالًا شديدًا، وتغنى بذلك فقال [الوافر]:

لَقَدْ عَلِمَتْ ثَقِيفٌ غَيْرَ فَخْرٍ
بِأَنَّا نَحْنُ أَكْرَمُهُمْ سُيُوفَا
وَأَكْثَرُهُمْ دُرُوعًا سَابِغَاتٍ
وَأَصْبَرُهُمْ إِذَا كَرِهُوا الْوُقُوفَا
وَأَنَا رِفْدُهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ
فَإِنْ جَحَدُوا فَسَلْ بِهِمْ عَرِيفَا
وَلَيْلَةَ قَادِسٍ لَمْ يَشْعُرُوا بِي
وَلَمْ أُشْعِرْ بِمَخْرَجِي الزُّحُوفَا
فَإِنْ أُحْبَسْ فَقَدْ عَرَفُوا بَلَائِي
وَإِنْ أُطْلَقْ أُجَرِّعْهُمْ حُتُوفَا()

فاستخدام ضمير الجمع يعلن عن الانتماء للذات الجمعية، وهل كانت ثقيف وحدها هي التي قُتل من فوارسها دون القبائل الأخرى؟! إنما تغيُّر المفهوم أدى إلى الفخر بهم جميعًا، بجانب فخره بفروسيته، والشعور بالانتماء للجماعة والذود عنها هو ما جعله يحتال ليخرج من سجنه ويحارب، وسواء كانت قصة سجنه بسبب شرب الخمر أو بسبب المناوشات بينه وبين القادة وتفضيله الحارث بن المثنى وجرير بن عبد الله في قيادتهما على قيادة سعد؛ فإن الدافع واحد طالما أنه قبل بقيادة شخص من غير قبيلته، فقد ذابت الأنا الجاهلية في الـ(نحن) المسلمة.

والشاعر بشر بن ربيعة يفخر بجهاده في معركة القادسية، فيقول [الطويل]:

تَذَكَّرْ هَدَاكَ اللَّهُ وَقْعَ سُيُوفِنَا
بِبَابِ قُدَيْسٍ وَالْمَكَرُّ عَسِيرُ
عَشِيَّةَ وَدَّ الْقَوْمُ لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ
يُعَارُ جَنَاحَيْ طَائِرٍ فَيَطِيرُ
إِذَا مَا فَرَغْنَا مِنْ قِرَاعِ كَتِيبَةٍ
دَلَفْنَا لِأُخْرَى كَالْجِبَالِ تَسِيرُ
تَرَى الْقَوْمَ فِيهَا وَاجِمِينَ كَأَنَّهُمْ
جِمَالٌ بِأَحْمَالٍ لَهُنَّ زَفِيرُ()

فالشاعر لم يتغنَّ بفروسيته وحده أي الذات الفردية كما كان في الجاهلية، وإنما تحول المفهوم إلى الذات الجمعية، والفخر بالقبيلة أولى هذه المراحل، فقبيلته وغيرها تجتمع تحت راية الإسلام، ولذا لما وصل عمر بن الخطاب هذا الشعر أرسل إلى سعد بن أبي وقاص أن يجيز الشاعر ويعطيه ألفي درهم، وما هذا إلا لكون المفاهيم والقيم قد تبدلت، وماتت العصبية القبيلة لتذوب في الذات الجمعية. وأما الرؤية السياسية فتغيرت وصارت أرحب لمفهوم الدار، وخرجت من الحيز الجغرافي الضيق للجزيرة إلى عوالم أرحب بكثير، فكلُّ ما وصل إليه الفاتحون

وصار تحت أيديهم؛ هي دار إسلام، وما عداها دار كفر وشرك. وهذه الرؤى التي غيَّرها الإسلام، ووصف الذات الجمعية؛ نجدها بكثرة في شعر الفتوحات، حيث يتغنى الشاعر ببسالته، وبسالة قومه، ويذكر مكان الوقعة، وما دار فيها من شدة الحرب والبلاء، ثم النصر على الأعداء، ومن ذلك (يوم طاوس) يقول خليد بن المنذر [الطويل]:

بِطَاوُسَ نَاهَبْنَا الْمُلُوكَ وَخَيْلَنَا
عَشِيَّةَ شَهْرَاك عَلَوْنَ الرَّوَاسِيَا
أَطَاحَتْ جُمُوعُ الْفُرْسِ مِنْ رَأْسِ حَالِقٍ
تَرَاهُ كَمَوَّارِ السَّحَابِ مُنَاغِيَا
فَلَا يُبْعِدَنَّ اللهَ قَوْمًا تَتَابَعُوا
فَقَدْ خَضَّبُوا يَوْمَ اللِّقَاءِ الْعَوَالِيَا()

إن استعمال ضمير الجمع يعلي من شأن الذات الجمعية، بينما ينخفض صوت الأنا الذي كان في الجاهلية، ويصوَّر هذا في الكثير من شعر الفتوحات مما يدل على ديناميكية الوعي وحركته المنتقلة من الأنا الفردية إلى الأنا الجمعية، أو الـ(نحن)، والوعي هنا يعمل على البعد الاجتماعي الذي تغير بذوبان السلطة القبلية، ووعي تاريخي بالمجد الذي يحققه المسلمون، فأي نصر في أي بقعة من الأرض هو فخر لكل مسلم، حتى وإن لم يشهده.

٤.المبحث الثالث: تمثلات "دار الكفر" في شعر الفتوحات الإسلامية.

١.٤.المطلب الأول: "دار الكفر" بوصفها فضاء للمواجهة العقدية:

لا ريب أن المكان يُعدّ عنصرًا فاعلًا في تشكيل الرؤية الشعرية لشعر الفتوحات الإسلامية، إذ يُبرز التفاعل الجدلي بين الشاعر ووجدانه الداخلي وما ينشأ عنه من تجليات شعورية تعبّر عنها الذات المبدعة في إطارها النصي. ومن خلال هذا المنظور يمكن النظر إلى النص الشعري ضمن مقاربة تأويلية هرمنيوطيقية؛ باعتبارها منهجًا يقوم على تفكيك الدلالات واستنطاق المعاني الكامنة عبر مجموعة من الممارسات التأويلية المنفتحة التي تتجاوز حدود المعنى الظاهر إلى آفاق النص الماورائية()، فالمكان الذي هو وعاء للشخصيات، ومسرح للأحداث، يفرض على المبدع المواجهة بين حقيقة المكان أو رمزيته، وبين الشعور الوجداني والعقدي للمبدع، ومن هنا فإن دار الكفر تمثل فضاء المواجهة العقدية عند شعراء الفتوحات الإسلامية، فهو مواجهة بين عقيدة إيمانية، وأخرى شركية. ويتنوع المكان لدى الشعراء، ما بين ذكر الوقائع والحروب التي وقعت فيه، وما بين ذكر المدن المفتوحة ووصفها وما رأوه فيها من حضارة، أو ما كانت تمثله لأهلها سابقًا. **ذكر الوقائع:**

فمن الوقائع التي كانت بين المسلمين وغيرهم من أهل الشرك، وقعة (الثَّنيُّ) وهو موضع بالجزيرة قرب شرقيّ الرّصافة، كما يُذكر أن الثَّنِي موضع مائي يقع قريبًا من بلدة أُدَم قرب ذي قار، وتوجد فيه عيون وآبار()، وهذا ما ذكره الطبري في "تاريخه" قال: وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ نَهْرٍ الثَّنِيَّ()، وكان بنو تغلب وبنو بجير –على الرغم من كونهم عربًا– انضموا إلى معسكر الفرس وحاربوا إخوانهم العرب، وهي معركة صارت بين عقيدتين عقيدة الكفر بتجمع قبائل تغلب وبني بجير وعقيدة الإيمان التي يمثلها المسلمون بقيادة خالد بن الوليد، فأوقع المسلمون بهم هزيمة منكرة، وسبوا نساءهم، وتغنى الشعراء بهذه المعركة الدامية، والنصر المظفر، فقال الأسود بن قطبة [الوافر]:

لَعَمْرُ أَبِي بُجَيْرٍ حَيْثُ صَارُوا
وَمَنْ آوَاهُمُ يَوْمَ الثَّنِيِّ
لَقَدْ لَاقَتْ سَرَاتُهُمُ فِضَاحًا
وَفِينَا بِالنِّسَاءِ عَلَى الْمُطِيِّ
أَلَا مَا لِلرِّجَالِ؟ فَإِنَّ جَهْلًا
بِكُمْ أَنْ تَفْعَلُوا فِعْلَ الصَّبِيِّ()

فالفضاء الجغرافي هنا ليس محددًا تحديدًا تحيزيًّا تتضح معالمه، وإنما هو مشار إليه بالوقعة التي دارت بين المعسكرين، والواضح البيِّن في الأبيات الفخر بالنصر على الأعداء، وتعييرهم بالشرك واتباع المشركين، فالمكان معبر عن العقيدة الإيمانية في مواجهة العقيدة الشركية، وقد افتخر الشاعر بهذه النصر وخص بالذكر بني بجير، فقال [الوافر]:

طَرَقْنَا بِالثَّنِيِّ بَنِي بُجَيْرٍ
بَيَاتًا، قَبْلَ تَصْدِيَةِ الدّبوكِ
فَلَمْ نَتْرُكْ بِهَا عَرَبًا() وَعَجَمًا
مَعَ النَّصْرِ الْمُؤَزَّرِ بِالسّهُوكِ()

ومن الوقائع يوم (أُلَيْسَ وأَمْغِيْشَيَا) موضع كان بالعراق، حيث اجتمع العرب من بني تغلب طلبًا للثأر لقتلاهم، ومعهم بنو عجل، وغيرهم من عرب الضاحية، وتحالفوا مع الفرس، وتجمعوا قرب نهر الفرات في مكان يسمى أليس، وكان المسلمون بقيادة خالد بن الوليد، فتقاتل الفريقان قتالًا شديدًا، وكان النصر والظفر للمسلمين، وقتلوا من العرب والفرس سبعين ألفًا حتى سال النهر بدمائهم، فقال الأسود بن قطبة مفتخرًا بهذا النصر [الوافر]:

لَقِينَا يَوْمَ أُلَيْسَ وَأَمَّغِيّ
وَيَوْمَ الْمَقْرِ، آسَادَ النَّهَارِ
فَلَمْ أَرَ مِثْلَهَا فَضَلَاتُ حَرْبٍ
أَشَدّ عَلَى الْجَحَاجِحَةِ الْكِبَارِ
قَتَلْنَا مِنْهُمُ سَبْعِينَ أَلْفًا
بَقِيّةَ حَرْبِهِمْ نَحْبَ الْإِسَارِ
سِوَى مَنْ لَيْسَ يُحْصَى مِنْ قَتِيلٍ
وَمَنْ قَدْ غَالَ جَوَلَانَ الْغُبَارِ()

والملاحظ أن المكان تغير وتبدل، ولكنه ظلَّ حاويًا للأحداث التي وقعت فيه، وخلَّدها الشعر، برؤيته المكانية الشمولية للأحداث، فالمكان مُركَّز في حدوث الحرب، فهو خلية نابضة بما يحيط بها من جغرافية المكان لكونه يتخطى الحيز إلى ذكر الحدث الواقع فيه. وقد عبَّر الشعر عن التصارع العقدي الدافع للصمود والصبر ضد هذه الجحافل المتحالفة، فالمعركة كانت قوية اشتد فيها القتال بين الطرفين حتى نذر خالد بن الوليد لئن أمكنه الله منهم لا يُبقي من الأعداء أحدًا ويقتلهم في النهر حتى يفيض بهم دمًا، ويصور أبو محجن الثقفي هذا القتال الشديد فيقول [الطويل]:

وَمَا رُمْتُ حَتَّى خَرَّقُوا بِرِمَاحِهِمْ
ثِيَابِي، وَجَادَتْ بِالدِّمَاءِ الْأَبَاجِلُ
وَحَتَّى رَأَيْتُ مُهْرَتِي مُزْبَئِرَّةً
مِنَ النَّبْلِ، يَرْمِي نَحْرَهَا وَالشَّوَاكِلُ
وَمَا رُحْتُ، حَتَّى كُنْتُ آخَرَ رَائِحٍ
وَضُرِّجَ حَوْلِي الصَّالِحُونَ الْأَمَاثِلُ
مَرَرْتُ عَلَى الْأَنْصَارِ وَسْطَ رِحَالِهِمْ
فَقُلْتُ: أَلَا هَلْ مِنْكُمُ الْيَوْمَ قَافِلُ؟
وَقَرَّبْتُ رَوَّاحًا وَكَوْرًا وغرقة
وَغُودِرَ فِي أُلَيْسَ بَكْرٌ وَوَائِلُ()

فالبيتان الأول والثاني يصوران شدة الحرب وكثرة القتل بين الطرفين، والبيت الثالث يمثل البعد العقدي في المواجهة (موت الصالحون الأماثل)، وكذا البيت الذي يليه يصور كثرة ما وقع من قتلى الأنصار، وهم من أفاضل الصحابة المؤازرون للدين، حتى تعجب الشاعر وسأل هل منهم أحد يعود ناجيًا من القتل بعدما رأى من كثرة قتلاهم، مما يوحي بشدة بلائهم وصبرهم في القتال، وبذلهم نفوسهم طلبًا للشهادة، وهذا لا يكون إلا بالدافع الإيماني واليقين بأن ما يقدمونه من أرواحهم نصر لدين الله، في مواجهة العقائد الشركية.

ذكر المدن: ومن الأماكن التي ذكرها الشعراء في فتوحاتهم: المدن الكبرى، والتي تغنى الشعراء بفتحها وانتصارهم على عدوهم، ومن هذه المدن (الحيرة)، وهي من كبرى مدن فارس وقتئذ، وقد فتحها المسلمون بعد أن أبلوا بلاء حسنًا، فقال القعقاع بن عمرو التميمي [الطويل]:

وَيَوْمَ أَحَطْنَا بِالْقُصُورِ تَتَابَعَتْ
على الحيرة الروحاء إِحْدَى الْمَصَارِفِ
حَطَطْنَاهُمْ مِنْهَا وَقَدْ كَادَ عَرْشُهُمْ
يَمِيلُ بِهِمْ، فِعْلَ الْجَبَانِ الْمُخَالِفِ
رَمَيْنَا عَلَيْهِمْ بِالْقَبُولِ وَقَدْ رَأَوْا
غَبُوقَ الْمَنَايَا حَوْلَ تِلْكَ الْمَحَارِفِ
صَبِيحَةَ قَالُوا نَحْنُ قَوْمٌ تَنَزَّلُوا
إِلَى الرِّيفِ مِنْ أَرْضِ الْعُرَيْبِ الْمَقَانِفِ()

فالحيرة مدينة كبيرة يعتز بها الفرس، وحولها مدن أصغر وقرى مجاورة، لكن المكان المهيمن، هو الحيرة نفسها، ثم صار المكان حاويًا للأحداث التي دارت عليه، فلم يذكر مرة أخرى، وإنما ذكر الشاعر ما حدث من معارك وجدال بينه وبين الأعداء، فشكل المكان حافزًا للسرد وحكاية ما دار حوله أو عليه من مناوشات وحروب. ويقول عاصم بن عمرو عن الحيرة ًالوافر]:

صَبَحْنَا الْحِيرَةَ الرَّوْحَاءَ خَيْلًا
وَرَجْلًا فَوْقَ أَثْبَاجِ الرِّكَابِ
حَصَرْنَا فِي نَوَاحِيهَا قُصُورًا
مُشَرَّفَةً كَأَضْرَاسِ الْكِلَابِ ()

ويصف الشاعر المدينة وصفًا أكثر تحديدًا للقصور التي أبهرت العرب، وكانت الحيرة مسكن ملوك العرب في الجاهلية، واعتاد العرب تسميتها الحيرة الروحاء، وهنا يذكر الشاعر أن قصورها بارزة كأضراس الكلاب الظاهرة، يريد أنها عالية عما حولها، فما حولها قريب منها وهو مكان مشار إليه ضمنًا، مما يوحي بالبعد الاجتماعي لمن يعيشون فيها. ومن المدن: (الأنبار)، وهي مدينة من مدن العراق حولها قرى متعددة، ويجري عندها الأنهار، وكان الفرس قد ألَّبوا أهلها على المسلمين هو ومن حولهم من أهل السواد، فخرج إليهم خالد بن الوليد في جمع عظيم، فقال عاصم بن عمرو [الوافر]:

جَلَبْنَا الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ الْمَهَارِي
إِلَى الْأَعْرَاضِ أَعْرَاضِ السَّوَادِ
وَلَمْ تَرَ مِثْلَنَا كَرَمًا وَمَجْدًا
وَلَمْ تَرَ مِثْلَنَا شخاب هَادِ
شَحَنَّا جَانَبَ الْمِلْطَاطِ مِنَّا
بِجَمْعٍ لَا يَزُولُ عَنِ الْبِعَادِ
لَزِمنَا جَانَبَ الْمِلْطَاطِ حَتَّى
رَأَيْنَا الزَّرْعَ يُقْمَعُ بِالْحَصَادِ
لِنَأْتِي مَعْشَرًا أَلَبُوا عَلَيْنَا
إِلَى الْأَنْبَارِ أَنْبَارِ الْعِبَادِ()

وقد ذكر الشاعر (الملطاط) وهو طريق على ساحل البحر مشى فيه خالد بالجيش ليفاجأ أهل الأنبار، والمكان هنا هو الغاية من ذكر الأحداث على عكس ما سبق، فالشاعر يذكر كيف كان جمعهم الكبير وكيف ساروا في طريق على الساحل حتى امتلأ بالجنود، وكل ذلك لتكون الغاية والمفاجأة لعدو في الأنبار.

٢.٤.المطلب الثاني: تقاطع الرؤية الجغرافية مع التصور العقدي

يعكس المكان صورة الشخصيات ودلالتها النفسية، والعقدية، والاجتماعية، والثقافية، فهو عنصر فعال في فهم النص الشعري، ومن خلال المكان يظهر للمتلقي مشاعر الشخصيات

وانفعالاتها، وشعورها بالأمن والطمأنينة، أو الخوف والقلق، ويتجلى المظهر العقدي في ترابطه بالمكان، فقد يعيش الإنسان في وطنه الأصلي وهو يطمئن مع جيرانه، ولا يكون ذلك إلا بالتوافق، ولكن حين يتغير الأمن إلى خوف لاختلاف البعد العقدي، تظهر سمات الشخصية المؤمنة والمزيفة.

التقاطع: فقد جاء الإسلام فشعر العرب بالأمان والطمأنينة على أنفسهم من الإغارة والقتل والسلب والنهب الذي كان في الجاهلية، فأمن الناس بعضهم بعضًا، ولما حدثت الردة في عهد أبي بكر، تغير الموقف إلى ما كان عليه قبل الإسلام، ففي (حضرموت) باليمن ارتد الأشعث بن قيس، ولما كلمه زياد بن لبيد العامل عليهم من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم لم يستمع لحديثه، فكلمه ابن عم له يقال له امرؤ القيس، فلم يستجب له فقال [الوافر]:

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا بَكْرٍ رَسُولَا

وَسُكّانَ المَدِينةِ أَجْمَعينَا

فَلَيْسَ مُجَاوِرًا بَيْتِي بُيُوتًا

بِمَا قَالَ النَّبِيُّ مُكَذِّبِينَا

دَعَوْتُ عَشِيرَتِي لِلسِّلْمِ لَمَّا

رَأَيْتُهُمُ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَا

شأمتم قومكم وشأمتمونا

وغابركم سيشأم غَابِرِينَا

فَلَسْتُ بِعَادِلٍ للَّه رَبًّا وَلا مُتَبَدِّلا بِالسِّلْمِ دِينَا()

فالرؤية الجغرافية للوطن المصغر (بيتي)، تتقاطع مع الرؤية الدينية العقدية، فالشاعر يعلن ثباته على الدين، كما يعلن أنه سيهجر بيته حتى لا يجاور بيوت من كذبوا دين النبي صلى الله عليه وسلم وارتدوا عنه، ثم يستمر في سرده للأحداث المصاحبة للمكان حيث دعا قومه للإسلام، لكنهم رفضوا وتولَّوا مدبرين، ويعلن في البيت الأخير عن العقيدة الصحيحة لديه، بأنه لا يعدل بربه أحدًا، ولن يبدل الإسلام بدين آخر. إن المكان هنا بعد أن كان حاضنًا للشخصية المبدعة، صار طاردًا لها، وهي نافرة عنه، وهذا حين تعارض مع الهوية الدينية، فالرؤية الجغرافية للوطن رمز الأمن والطمأنينة تحولت بدافع الرؤية العقدية إلى مصدر قلق وخوف واضطرابات، وإذا خشي الإنسان على نفسه في وطنه فلن يجد مكانًا يطمئن فيه، لكن المسلم في ذلك الوقت يعلم أن الوطن هنا لا يتوقف عند الحدود الجغرافية الصغيرة، فالمدينة مصدر أمن وأمان له، وهي لا تختلف كثيرًا عن بيئته العربية، وهو تحت مظلة الإسلام وسيجد له إخوانًا وأهلا بدلا ممن تركهم، لاتحاد القيم الدينية وشمولها للجميع.

الاندماج: وقد يندمج المكان مع الرؤية العقدية، وذلك حين يتذكر المسلمون فتح الشام، وما لاقوه من أهوال الحروب لفتحها، فلما فتحت عليهم، أصابهم من خيرها الحظ الوافر،

وهذا ما سجله زياد بن حنظلة حين تذكر فتح الشام عام الرمادة، فقال [الطويل]:

تَذَكَّرْتُ حَرْبَ الرُّومِ لَمَّا تَطَاوَلَتْ
وَإِذْ نَحْنُ فِي عَامٍ كَثِيرٍ نَزَائِلُهْ
وَإِذْ نَحنُ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ وبَيْنَنا
مَسِيرَةُ شَهْرٍ بَيْنَهُنَّ بَلَابِلُهْ
وَإِذْ أَرْطَبُون الرُّومِ يَحْمِي بِلَادَهُ
يُحَاوِلُهُ قِرْمٌ هُنَاكَ يُسَاجِلُهْ

فَلَمَّا رَأَى الْفَارُوقُ أَزْمَانَ فَتْحِهَا
سَمَا بِجُنُودِ اللَّهِ كَيْمَا يُصَاوِلُهْ
فَلَمَّا أَحَسُّوهُ وَخَافُوا صِوَالَهُ
أَتَوْهُ وَقَالُوا أَنْتَ مِمَّنْ نُوَاصِلُهْ
وَأَلْقَتْ إِلَيْهِ الشَّامُ أَفْلَاذَ بِطْنِهَا
وَعَيْشًا خَصِيبًا مَا تُعَدُّ مَآكِلُهْ
أَبَاحَ لَنَا مَا بَيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ
مَوَارِيثَ أَعْقَابٍ بَنَتْهَا قَرَامِلُهْ
وَكَمْ مُثْقَلٍ لَمْ يَضْطَلِعْ بِاحْتِمَالِهِ
تَحَمَّلَ عِبْئًا حِينَ شَالَتْ شَوَائِلُهُ()

فالحيز الجغرافي للمكان بعيد عن بلاد العرب مسيرة شهر، ولكن الجانب العقدي دفعهم لهذا المسير الشاق، وتحمل الأهوال لإبلاغ الدين، ويذكر الشاعر الأرطبون قائد الروم وهو يدافع عن وطنه الذي يستمد منه مكانته الاجتماعية والسياسية، على عكس المسلمين فإنهم ما فعلوا ذلك إلا لنشر لدين الله، والمكان الذي كان مصدر قلق وخوف وحرب صار بعد ذلك مصدر رخاء وسخاء في أنواع المطعم والمشرب مما لم يعرفه العرب ويعتادوا عليه، وصار الحيز الجغرافي يندمج مع الرؤية العقدية بعد استقرار المسلمين هناك. وتبدو هذه التيمة هي الأكثر وضوحًا في شعر الفتوحات، فالبلاد المفتوحة كانت تمثل دار الكفر قبل فتحها، ولكنها بعد الفتح صارت دار إسلام، تندمج العقيدة مع الحيز الجغرافي فيها، ومن الشواهد مدينة (كسكر) من مدن فارس، توجه إليها المسلمون ليفتحوها وكانت محمية لـ(نرسي) ابن خالة كسرى، لا يأكل من شجرها وثمارها إلا الملوك، فقال عاصم بن عمرو [الطويل]:

لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَيَّ بِهَيِّنٍ
لَقَدْ صُبِّحَتْ بِالْخِزْيِ أَهْلُ النَّمَارِقِ
بِأَيْدِي رِجَالٍ هَاجَرُوا نَحْوَ رَبِّهِمْ
يَجُوسُونَهُمْ مَا بَيْنَ دُرْتَا وَبَارِقِ
قَتَلْنَاهُمْ مَا بَيْنَ مَرْجِ مُسْلِحٍ
وَبَيْنَ الْهَوَافِي مِنْ طَرِيقِ الْبَذَارِقِ()

فالأماكن المذكورة في الأبيات (درتا- بارق- مرج مسلح- الهوافي- البذارق) كلها أحيزة جغرافية كانت تتقاطع فيها الرؤية الجغرافية مع الرؤية العقدية، فلما فتحت اندمجت الرؤيتان، فصارت هذه البلاد وأهلها تحت حكم

المسلمين حتى أنا أبا عبيد قائد المسلمين وزع الثمار من الفواكه وغيرها من أرض (النرسيان) المحمية للملوك على الفلاحين ليطعموها، وأرسل منها إلى الخليفة عمر بن الخطاب في المدينة ليطعمها المسلمون ويذكروا نعمة الله عليهم. وقوله: **(بِأَيْدِي رِجَالٍ هَاجَرُوا نَحْوَ رَبِّهِمْ)** يمثل اندماج الرؤية العقدية مع الرؤية الجغرافية، فالهجرة إلى الله لا يحدها أحيزة جغرافية.

ويمثل عاصم بن عمرو في شعره المعاني السابقة في أبيات أخرى أوضح من تلك، فيقول [الطويل]:

ضَرَبْنَا حُمَاةَ النَّرْسِيانِ بِكَسْكَرِ
غَدَاةَ لَقِينَاهُمْ بِبِيضٍ بَوَاتِرِ
وَقَرْنَا عَلَى الْأَيَّامِ وَالْحَرْبُ لَاقِحٌ
بِجُرْدٍ حِسَانٍ أَوْ بِبزْلِ غَوَابِرِ
وَظَلَّتْ بِلَادُ النَّرْسِيانِ وَتَمْرِهِ
مُبَاحًا لِمَنْ بَيْنَ الدُّبَا وَالْأَصَافِرِ
أَبَحْنَا حِمَى قَوْمٍ وَكَانَ حِمَاهُمُ
حَرَامًا عَلَى مَنْ رَامَهُ بِالْعَسَاكِرِ()

إن سطوة المكان هنا تجعله محفزًا على سرد الأحداث وما وقع فيها من معارك، وما آلت إليه الأحوال، ويتنوع المكان ما بين مكان أصلي (كسكر)، ومكان عَرضي (الدبا)، فالمكان الثاني يستفيد من الأول، فأهل هذه المناطق المجاورة كان محرمًا عليهم الأكل من تمر (النرسيان) وثمارها؛ لأنها محمية للملوك، فلما فتحها المسلمون أقاموا العدل بين الناس وصارت مباحة لهم غنيهم وفقيرهم سواء، وهذه هو العدل الذي قصده المسلمون.

٣.٤.المطلب الثالث: شعر الفتوحات والتصعيد العقدي في مواجهة الدار الأخرى:

يمثل شعر الفتوحات المعاني الإيمانية التي تشربتها قلوب الصحابة ومَن بعدهم، وكان البعد العقدي دافعًا للوقوف ضد دار الشرك وما تمثله من شركيات وثنية لو تأملها الإنسان لفهم خطأه بوضوح، وقد تمثل البعد العقدي في التعبير عن الهوية الدينية، والتصعيد في مواجهة دار الشرك، وذلك بداية من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومثَّل الشعر علاقة وثيقة بين الفرد وهويته الدينية، ومفهوم دار الإسلام ودار الشرك عنده. فأهل المدينة كانوا على علاقة تناغمية بين الأرض والهوية العقدية، معبرين عن ذلك بلغتهم الشعرية، داعين إلى الجهاد ضد دار الكفر، ومعلنين اتباعهم للنبي صلى الله عليه وسلم والثقة في نصر الله له؛ لأنهم على الحق، فهذا حسان بن ثابت يتوعد أهل مكة بالغزو وفتحها، بعد أن كثر من أهلها العداء للمسلمين، فيقول [الوافر]:

عُدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمِ تَرَوهَا
تُثيرُ النَّقع موعِدُها كَداءُ

تُبارين الأَعِنَّة مُصْعِداتٍ
عَلَى أكْتافِها الأُسُل الظِّماءُ
تَظَلُّ جيادُنا مُتَمطِّراتٍ
يُلَطِّمُهُنَّ بِالخُمُر النِّساءُ
فإمَّا تُعْرِضُوا عنَّا اعْتَمَرنا
وكان الفَتْحُ وانْكَشَفَ الغِطاءُ
وإلا فاصْبِروا لِجلادِ يَوْمٍ
يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَقَالَ اللهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا
يَقُولُ الحَقَّ لَيْس بِهِ خَفَاءُ
وَقَالَ اللهُ قَدْ يَسَّرتُ جُنْدًا
هُمُ الأَنْصَارُ عُرْضَتُها اللِّقاءُ()

وفي غزوة مؤتة بعد استشهاد زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب –رضي الله عنهما– أخذ الراية من بعدهما عبد الله بن رواحة، فقاتل قتالًا شديدًا، وهو يرتجز ويقول [الرجز]:

يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي
هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيتِ
وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ
إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيتِ()

وهذا الشعر يدل على تغلغل البعد العقدي داخل الصحابي الجليل الذي جعله يفضل الموت على الحياة. أما خارج المدينة، فكان مفهوم الدار عند الأفراد المسلمة هو ما يمثله المكان الذي حلَّ فيه النبيصلى الله عليه وسلم والمسلمون، فنرى الشعراء يعلنون عن عقيدة التوحيد، ونبذ عقيدة الشرك، فهذا العباس بن مرداس من بني سليم، كان له صنم يقال له: (ضمار)، فأحرقه، وارتحل إلى النبي –ص– وذلك قبيل فتح مكة، وأنشأ في ذلك قوله [الطويل]:

فَآمَنْتُ بِاللّهِ الذِّي أَنَا عَبْدُهُ
وَخَالَفْتُ مَنْ أَمْسَى يُرِيدُ الْمَمَالِكَا()

فالمعنى الإيماني واضح في نبذ الشرك واتباع التوحيد، ولكن المعنى الجغرافي للدار ينتقل إلى حيِّز أرحب، فمفهوم الدار ينتقل مع مفهوم الشخصيات التي تنتقل إليه، ولم تكن مكة فُتحت بعد، ولكن الشاعر على يقين بأنها ستتحول إلى دار إسلام طالما قصدها المسلمون، وقد قَدِم العباس المدينة عام الفتح فوجد النبي صلى الله عليه وسلم يتهيأ للمسير إلى مكة، فواعده عند (القديد)، فجاء العباس بألف فارس من بني قومه، وأنشأ في ذلك قوله [الكامل]:

بَلِّغْ عِبَادَ اللّهِ أَنَّ مُحمَّدًا
رَسُولُ الْإِلَهِ رَاشِدٌ أَيْنَ يَمَّمَا
دَعَا قَوْمَهُ وَاسْتَنْصَرَ اللّهَ رَبَّهُ
فَأَصْبَحَ قَدْ وَافَى الْإِلَهَ وَأَنْعَمَا
عَشِيَّةَ وَاعَدْنَا قَدِيدًا مُحَمَّدًا
يَؤُمُّ بِنَا أَمْرًا مِنَ اللّهِ مُحْكَمَا
أَطَعْنَاكَ حَتَّى أَسْلَمَ النَّاسُ كُلُّهُمْ
وَحَتَّى صَبِحنَا الْخَيْلَ أَهْلَ يَلَمْلَمَا()

وهكذا صار المكان مجالًا حيويًّا أرحب في مفهومه، وصارت العلاقة بين المكان وساكنه علاقة دلالية تمثل قوة الإيمان الهائلة التي تحول المكان بين عشية وضحاها من مكان معادي إلى مكان آمن يعكس المعاني الإيمانية ويتمثلها الشعراء. والمتأمل في الفتوحات الإسلامية جميعها في عصر صدر الإسلام يجد الدافع الديني والانتماء العقدي هو المحرض الأول على بذل النفس في سبيل الله، فالمسلمون تتلى عليهم آيات الجهاد، وفيها تحريض على قتال المشركين، وإخبار بمكانة الشهداء عند ربهم، مما دفع المسلمين صغارًا وكبارًا إلى بذل نفوسهم في الله وطلبهم للشهادة، فبها الضمان إلى جنة الفردوس، والحياة الأبدية، ويسجل الشعر هذه الملاحم والصور النادرة للشجاعة والإقدام، يقول ضرار بن الأزور [الرجز]:

المَوْتُ حَقٌّ أَيْنَ لِي مِنْهُ الْمَفَرّْ
وَجَنَّةُ الْفِرْدَوسِ خَيْرُ الْمُسْتَقَرّْ
هَذَا قِتَالِي فَاشْهَدُوا يَا مَنْ حَضَرْ
وَكُلُّ هَذَا فِي رِضَا رَبِّ الْبَشَرْ()

فغايته من الجهاد هو رضا ربِّ البشر، ولذا يبذل نفسه هينة عليه وطائعًا لربه، ومثله قول خالد بن الوليد [الرجز]:

الْيَوْمَ يَوْمٌ فَازَ فِيهِ مَنْ صَدَقْ
لَا أَرْهَبُ الْمَوْتَ إِذَا الْمَوْتُ طَرَقْ
عَسَى أَرَى غَدًا مَقَامَ مَنْ صَدَقْ
فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ وَأَلْقَى مَنْ سَبَقْ()

ومثله قول جندب بن عامر بن الطفيل [الوافر]:

سَأَبْذُلُ مُهْجَتِي أَبَدًا لِأَنِّي
أُرِيدُ الْعَفْوَ مِنْ رَبٍّ كَرِيمِ
وَأَضْرِبُ فِي الْعِدَا جَهْدِي بِسَيْفِي
وَأَقْتُلُ كُلَّ جَبَّارٍ لَئِيمِ
فَإِنَّ الْخُلْدَ فِي الْجَنَّاتِ حَقٌّ
تُبَاحُ لِكُلِّ مِقْدَامٍ سَلِيمِ()

فالبعد العقدي هو الدافع الأول لتلك الشجاعة التي لم يعرفها التاريخ من قبل، بل كان المحرك الأساس لخروج المجاهد حتى وإن سالت دموع أهله حرصًا على بقائه معهم، وخوفًا عليه من أهوال الحرب، لكن الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب فإنه ينفي عنها حب الدنيا وزينتها.

٥. الخاتمة:

أطلقت الفتوحات الإسلامية ألسنة الشعراء، وكانت ميدانًا رحبًا للتعبير عن بطولاتهم وشجاعتهم. أُطلق مفهوم دار الإسلام على الحيز الذي يطبق فيه الأحكام الشرعية للإسلام ويأمن مَن فيه من الناس، سواء كان الأغلبية القاطنة فيه مسلمين، أو غير مسلمين، كما

أُطلق مفهوم دار الكفر على ما يضاد ذلك. تمظهرت الهوية الدينية عند شعراء الفتوح الإسلامية في أشعارهم الصارخة بولائهم الديني وانتمائهم العقدي للإسلام ومبادئه، وإبراز مبدأ الجهاد في سبيل الله طلبًا لمرضاته، والفوز بجنته وثوابه. عبَّر الشعراء عن الانتماء الجغرافي لدار الإسلام بداية من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ومدحه، والإشادة بما جاء به من الحق، ونبذ الشرك وأهله مهما كانت البقعة الجغرافية التي يقيمون فيها، ولذا كانت دار الإسلام هي رمزية النجاة والأمان للشعراء. أثار الرحيل والفتوحات شوق الشعراء وحنينهم إلى وطنهم فتغنوا بذلك في أشعارهم، مما يوحي بالانتماء الجغرافي لدار الحق التي خرجوا منها، وشعورهم بالمسؤولية التي كُلفوا بها، وصارت دار الكفر بحيزها الجغرافي رمزية للمواجهة العقدية. تحوَّل الشعر في هذه المرحلة من التغني بالبطولة الفردية الذاتية إلى الذات الجمعية باعتبار المسلمين أمة واحدة، فانتقل التعبير من الفخر القبلي الضيق إلى الفخر الجمعي الأرحب بانتصارات المسلمين في كل مكان. شكَّل المكان حضورًا بارزًا بوصفه فضاءً جغرافيًّا، وُظِّف توظيفًا متقنًا من الشعراء، فذكروا أماكن المعارك، باعتبارها فضاء للمواجهة، ووصفوا المعارك وشجاعتهم، وانتصارهم على الأعداء، باعتبارها سيمائية دار الكفر، متخذين من ذلك رسالة للمتلقين للتحفيز على الجهاد، والحماسة والإثارة لديهم. أظهر البحث أن المكان علامة مائزة في فهم النص الشعري والتغلغل في أعماقه، مما يسهم في فهم الذات المنتجة ومشاعرها الوجدانية، من خلال سبر أغوار الفضاء المكاني الفعال بحضوره السافر داخل النص، وفهم انتماء الذات، وهويتها.

التوصيات

يوصي البحث بمزيد من الدراسات الموجهة إلى شعر الفتوح لكونه يمثل مرحلة هامة في شعر صدر الإسلام، كما يمثل الرد على تراجع الشعر ودوره في تلك الحقبة. كما يوصي البحث بالمزيد من الدراسات المتناولة للبعد المكاني وأهميته في تشكيل النتاج الشعري، والتأثير المنعكس على الشخصية المنتجة له، ودوره في تشكيل الهوية والوعي.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

– محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط ١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

– مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

–إدريس، عبد الله عبد العزيز، مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ط ١، كلية الآداب– جامعة الملك عبد العزيز، ١٩٨٢م.

–أبو النصر، مدحت محمد، بناء وتدعيم الانتماء الوطني ودور مهنة الخدمة الاجتماعية، المجلة العربية للآداب والدراسات الإنسانية، مج ٦، ع ٢٣، ٢٠٢٢م.

–ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد، الإصابة في تمييز الصحابة، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، ط ١، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥هـ.

–ابن حجر الهيتمي، أحمد بن محمد بن علي، تحفة المحتاج في شرح المنهاج، المكتبة التجارية الكبرى بمصر لصاحبها مصطفى محمد، ١٩٨٣م.

–البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ت: عبد السلام هارون، ط ٤، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م.

–جمعة، مصطفى عطية، الرؤية والأداة جماليات المكان والزمان والتأويل في النص الأدبي، وكالة ناشرون، الجيزة– مصر، ٢٠٢٣م.

–الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، ت: صفوان عدنان الداودي، ط ١، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، ١٤١٢هـ.

–خلَّاف، عبد الوهاب، السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية، دار القلم، ١٩٨٨م.

–الشمالي، نضال، والخطيب، عبد الله، أنماط المكان وتقاطباته في روايات جمال أبو حمدان، مجلة العلوم الإنسانية والدراسات الاجتماعية، مج ٥٠، ع ١، ٢٠٢٣م.

– عبد السلام، محمد، الجغرافيا السياسية دراسة نظرية وتطبيقات عالمية، مكتبة نور، ٢٠٢٠م.

–ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

–أبو الفرج الأصبهاني، علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني، الأغاني، ط ١، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤١٥هـ.

-المسعودي، علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب، ت: أسعد داغر، دار الهجرة – قم، ١٤٠٩هـ.

– القاضي، النعمان عبد المتعال، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، ط ١، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٥م.

-الكراسنة، محمود سميح، وآخرون، الانتماء والولاء الوطني في الكتاب والسنة النبوية، جامعة اليرموك.

-ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، أحكام أهل الذمة، ت: يوسف بن أحمد البكري – شاكر بن توفيق العاروري، ط ١، رمادى للنشر – الدمام، ١٩٩٧م.

-الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، تاريخ الرسل والملوك، ط ٢، دار التراث – بيروت، ١٣٨٧هـ.

-الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي، الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة الشيباني، ت: يحيى الجبوري، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م.

-الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي، فتوح الشام، ط ١، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

-ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، ط ٣، دار صادر – بيروت، ١٤١٤هـ.

– ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم البلدان، ط ٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.